السلوك وتكامل البناء في سورة الحجرات

« ١ »

لعلّي لا أجد غضاضة في التذكير بأن ما يقفنا عليه المعلم القرآني عند اصطحاب الكلمات الهاديات في القرآن الكريم، كثيراً ما يكون إشارات لا يتسع المقام لتفصيل القول فيها، وللتفصيل مكانه لمن أراد. وعلى هذا السَّنن كان اصطحابنا فيما سبق من القول للآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الحجرات، حيث وقفنا المعلم القرآني من خلالهما على الأهمية البالغة لارتباط الإيمان بالسلوك، والعلم بالعمل، وعلى ما للأخوة الإيمانية من أثر في التعاون على البر والتقوى، والقدرة على حل المشكلات الطارئة على صعيد ما يجب من رفد المجتمع بما يقوي بناه، وينمي طاقاته على مختلف الأصعدة في ظل ذلك المحور الإيماني، الأمر الذي يحقق تماسكه واستقراره، وقدرته على دفع العاديات بإذن الله.

وفي حديث موصول بهذا: ننتقل إلى الآية الحادية عشرة من السورة وهي قول الله جلّ وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

والذي يستوقف الناظر المتدبِّر ــ بادىء ذي بدء ــ في هذه البصيرة النيِّرة: هذا التكامل الذي يهدي إليه الكتاب العزيز، في الحفاظ على بنية المجتمع فالقضية الكبرى التي حصدت الأمة من انحسارها عن حياتها البلاء الكبير، والتي كانت محتوى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الآية.. هذه القضية الكبرى في حياة الأمة والتي تأخذ ــ كما هو ظاهر ــ طابعاً أعم من

السلوك الفردي، في التعامل: تلاها التذكير بالقاعدة التي يقوم عليها كيان المجتمع المسلم وهي أخوة العقيدة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولذلك ما له من دلالة هي الأمانةُ في أعناق المسلمين، والمخالفةُ عن أدائها من الجرائم العظام..

وها نحن نرى ضوابط السلوك بين الأفراد في حياتهم اليومية، وقد تتعدى إلى الجماعات، خصوصاً إذا لاحظنا تنوّع مسالك الحياة وشعابها المعقّدة، الأمر الذي يدل على أن سلوك الفرد مع أخيه هو البداية؛ فإن كان سلوكاً خيِّراً كانت النهايات الخيِّرة، وإلا كان الأمر غير ذلك وبنية المجتمع تتأثر بهذا وذاك.

ذلكم ما تشرق به الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات نفسها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

فالآية الكريمة تنهى عن السخرية، سواء كان ذلك بين الرجال أو بين النساء، أو في صور أخرى يكون فيها من هؤلاء وأولئك. والمعنى لا يسخر جماعة من جماعة ولا فرد من فرد ذكوراً كانوا أو إناثاً؛ لأن مقابلة الجمع بالجمع ــ كما يقول العلماء ــ قسمة على الأفراد؛ فكل رجل مطلوب منه هذا، منهي عن الوقوع فيما نهي عنه. وكل امرأة أيضاً. وتذكِّر الآية بأن الأمر مردُّه إلى الله لا إلى المعايير التي من خلالها يستكبر من يستكبر ويحتقر من يحتقر والعياذ بالله ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

والملاحظ أن النهي عن السخرية بين المسلمين ــ وهي الاستهزاء والتنقُّص والازدراء ــ اقترن بما يثير العقل كيما يفكِّر ويتثبت؛ فقد يكون من سُخِر منه، أو من سخر منها، خيراً ممن سَخِر أو سخِرت، وذلك مما يعين على الأوبة والعدول عن هذه الحماقة إن كان لدى الساخر المستهزئ بقية من إحساس تشعره بمقارفة الإثم لأنه يأتي خُلقاً نهى الله تعالى عنه، والنهي هنا للتحريم.

ثم جاء النهي عن اللمز والتنابز بالألقاب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ اللمز: التنقص وإسناد إنسان لآخر ما يعيبه قالوا: لمز: ازدرى وعاب، وقد يكون ذلك بشتى صور التعبير، ولمز الإنسان أخاه لمزٌ لنفسه ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ المؤمنون إخوة؛ فعندما يعيب أحدهم الآخر، فقد عاب نفسه ولا تعيبوا فتُعابوا، وهذا غير التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الفرق بين ما هو لله وما هو للنفس والهوى، وقد تكرر الوعيد على الهمز واللمز في القرآن، والهمز: الغيبة من ورائه، وترى الخلقين مقترنين قال تعالى في سورة «القلم»: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ لأن الهمَّاز اللمَّاز مذموم ملعون ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١]. إذ الويل كلمة عذاب، أو وادٍ في جهنم، وللهمز واللمز صور شتى قولية وفعلية.

ولا تسل عن المفاسد التي تترتب على الهمز واللمز وما يكون من سوء العلاقة بين الناس بسبب هذا الخلق الذميم. كما نهى الله عن التنابز بالألقاب، وهو التداعي بالألقاب التي يسوء الشخصَ سماعُها.. فالمؤمنون منهيون عن أن يعيب بعضهم بعضاً بالقول أو بالفعل أو بأية وسيلة أخرى، وعن أن يدعو بعضهم بعضاً بلقب يكرهه، ومن ذلك: يا فاسق يا كافر، وما أكثر ما تسوِّل النفس ويزين الشيطان من ألقاب وكلمات!! وآثار ذلك لا تخفى على من يتبصَّر في الأمور، ويرقب المسار الاجتماعي، والعوامل السلوكية التي تسهم في وهن المجتمع وتقطيع الأواصر بين أفراده؛ من هنا كان الوعيد شديداً على التخلق بتلك الأخلاق التي تجرُّ وراءها ما تجرُّ من الأذى والفرقة وتعكر صفو النفوس، فقال تعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ بئس الاسم الخروج عن دائرة الحق والخلق المستقيم بعد الإيمان الذي يقتضي دفء الأخوة الإيمانية وحسن التعامل الذي يثمر ما يثمر من القوة والتعاون على البر والتقوى، ناهيك عما يكون من الطمأنينة والتحابِّ في الله وكم للمتحابين في الله من عظيم المنزلة عند الله. وختمت الآية بالدعوة إلى التوبة من ذلك كله، ووعيدٍ من لم يتوبوا عن ذلك، ويستأنفوا السلوك المستقيم: بأنهم هم الظالمون لأنفسهم وللآخرين ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هكذا رُتّب الجزاء على الشرط في الآية، ومَن هنا: من أدوات العموم؛ فكل من أصرَّ على ذلك النهج الأخلاقي الظالم، فهو ظالم لنفسه ظالم لغيره، وهذا مجاف لأدب الأخوة وأخلاق أهل الإيمان.

إنها لمحة من لمحات الإعجاز في المنهج القرآني في تربية الإنسان المسلم وإعداد الموارد البشرية المذهلة لحمل العبء، والقيام بتبعات البناء ــ في جو من التآخي واستشعار الواجب في ظل الرسالة الخاتمة ــ، فالسلوك المستقيم عون لا عون يماثله ــ بعد عون الله ــ فيما عند الناس؛ على أن يأخذ العلم والكفايات والتخصصات كلُّها سبيلها الأمثل على صعيد التعاون الذي يمدُّه الحب في الله والثقة المتبادلة بين الإخوة ويحرِّك الأفراد بحوافز المودة والتضامن والرغبة في التعاون المجدي على هدي من الإيمان والأخوة المنبثقة عنه. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

خطوة أخرى مع السلوك والبناء في سورة الحجرات

« ٢ »

في نظرة عجلى إلى بعضٍ من آي سورة الحجرات التي رسمت للمسلمين ملامح المنهج السلوكي الذي يَهَبُ ـ بعون الله ـ المجتمعَ استقرارَه ونماءَ طاقاته الفاعلة، نعود مرة أخرى إلى الآية الحادية عشرة وهي قول الله تبارك وتعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقبل أن نعاود اصطحاب الآية الكريمة، استزادة من عطائها ودلالاتها، يحسن التذكير بما سبق أن أشرت إليه من هدي القرآن في تنبيه الفرد والجماعة إلى صيغة التكامل في السلوك، والكشف عن الارتباط الواضح بين الجزئيات والكليات، حيث ينعكس سلوك الفرد مع أخيه على الجماعة.

وتأثرُ المجتمع في ميادينه المتعددة كائن حسب نوعية السلوك، والعلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض.

وإذا كان هذا الأمر قد أخذ طابع التأكيد، وشديدِ الوعيد على السلوك المخالف بين الأفراد والجماعات؛ فالمطلوب ممن ولاّهم الله أمور التربية والتثقيف أن يكونوا أشد حرصاً على الاستقامة في ذلك، والبعدِ عن كل ما يؤذي الفرد أو الجماعة لأن ذلك من الظلم، فسلامة السلوك تعني دوام الود ونماء القدرة على التعاون البناء بطمأنينة وثقة، الأمر الذي يعطي الموارد البشرية مزيداً من الفاعلية والقدرة على الإنجاز.

واضطرابُ هذا السلوك وانحرافه يعطي عكس ذلك، ويؤثر بشكل تلقائي على نمو الطاقة المرتبطة ميدانياً بأولئك الذين اتسمت علاقاتهم بعضهم ببعض بهذا الانحراف.

تبدأ الآية الكريمة بخطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتذكير بالقاعدة التي ينبني عليها العمل والسلوك؛ فهذا الخطاب الندي المثقل بالتكريم، يُشعر المؤمن بأن من مقتضيات إيمانه، أن يكون وقافاً عند حدود الله في أموره كلها ــ كائناً ما كان موقع المسلم أو المسلمة في المجتمع ــ ما دقَّ منها وما جلَّ، وهذا واحد من أسرار التكامل في منهج التربية والإعداد في القرآن الكريم؛ فإذا استقام له هذا الوقوف عند حدود الله، كان ذلك برهان صدق الإيمان.

ثم نهى الله تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ﴿**لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾.

ولقد جاء التصريح بذكر النساء مع أن أكثر ما يكون خطاب التكليف في القرآن على التغليب، تأكيداً لأهمية هذا الخُلُقِ في الابتعاد عن السخرية بالناس، لما لاحتقار الناس والاستهزاء بهم من انعكاسات سيئة على علاقة الأفراد بعضهم ببعض، بل وعلى المجتمع نفسه.

وكثيراً ما تؤدي إلى الفتنة والتمزق والضعف. ولقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن رسول الله ﷺ قوله: «**الكِبْر بطر الحقِ وغَمْطُ الناس**». ويروى «**وغَمصُ الناس**» بالصاد، والمراد من ذلك ــ كما يقول العلماء ــ انتقاص الناس وازدراؤهم، واحتقارهم فإنه قد يكون من سُخِر منه أعظمَ قدراً عند الله تعالى وأحبَّ إليه من الساخر منه ومزدريه. وبطر الحق: دفعه وإنكاره ترفُّعاً وتجبُّراً.

والعبرة دائماً للمعايير الحقيقية في العظمة والصغار، هذا بالإضافة إلى أن المؤمن أخو المؤمن، والمؤمنة أخت المؤمنة تجمعهم جميعاً كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فمن مقتضيات الإيمان أن لا يقع ذلك. وأن يُبتعد عن كل ما يؤدي إليه.

وقد صرَّحت الآية بأن الحق هو فيما عند الله، لا فيما يصدر عن هذا الساخر المنتقص. بعد أن ذكَّرت بالقاعدة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال تعالى: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

ولو أخذ باحث اجتماعي عيِّنات من بعض المجتمعات لدراسة السلوك وأثره على الجماعة والمجتمع، لرأى قبساً من إعجاز القرآن في هذا التوجيه الذي لا يُحَدُّ بمجموعة من الناس في زمان أو مكان، ولأدرك شيئاً من عظمة المنهج الرباني فيما يرسُم لقواعد البناء وسلامة استمراره معافى من الأذى وعوامل الضعف.

obeikandl.com

obeikandl.com

سورة الحجرات.. وانعكاسات السلوك على البناء الاجتماعي

«٣»

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول على بعض من عطاء الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات، وهذه متابعة نرمي من ورائها إلى التعرف على قبسات أخر من ضياء هذه الآية الأمر الذي يقتضينا معاودة النظر والتبصُّر؛ والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وكون سورة الحجرات سورة مدنية؛ يعني أن هذه الآداب الإسلامية التي هي نبض الحياة في المجتمع المسلم ــ بعد أخوة الإيمان ــ تنزلت وقد استوى المجتمع على سوقه، واستضاءت تباشير الدولة المسلمة؛ فهي أخلاق لا بد منها للحياة الإسلامية دونما قصر على أزمنة أو أشخاص.

لقد صُدِّرت الآية بخطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشعاراً بالقاعدة التي يبنى عليها العمل والسلوك عند المكلفين أولئك الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وعلى أساس منها يخاطب المؤمنون بالتكاليف.

وما من ريب في أن هذا الخطاب النديَّ بالخير والعطاء: جارٍ على سنة التغليب من معهودات العرب في الخطاب؛ فالمقصود: يا أيها الذين آمنوا ويا أيتها اللواتي آمنّ؛ ولكن أفرد النساء أيضاً بالذكر: تأكيداً لأهمية البعد عن هذا الخلق الذميم ــ وهو السخرية من الناس والاستهزاء بهم واستصغارهم ــ : لما له من آثار هدامة، ومن انعكاسات سيئة في دخائل الأنفس مع الأخوة، غير محمودة العواقب على ساحة التعامل وتصنيف القيم. ولأن ذلك قد يكون في غير الرجال أكثر أحياناً: ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

وهذا يدل فعلاً على أن النساء شقائق الرجال؛ فخطاب التكليف واحد مما يدل على أهمية العناية بتربية المرأة في المجتمع المسلم وتأهيلها التأهيل الكافي، كيما تكون تلك المرأةَ المسلمة التي تعتز بدينها، فتقف عند حدود الله في عملها وسلوكها، كما يجعلها قادرة ــ بعون الله وفضله ــ على الإسهام في بناء المجتمع المتكامل المتوازن ــ الذي لا يعبث به التناقض ونمو جانب على حساب جانب آخر ــ وضمانِ قدرته على العطاء.

والواقع أن فسح المجال للعقيدة أن تأخذ مكانها في منهج البناء والإعداد للذكور والإناث، كفيل ــ بإذن الله ــ أن يباعد بين الفرد ــ ذكراً كان أو أنثى ــ وبين الغفلة. والوقوعِ في مثل هذه الخصال الذميمة التي تفرِّق ولا تجمع، وتزلزل الثقة في النفوس، وتباعدُ بين الأفراد وبين أن يركَن بعضهم إلى بعض. فارتباط السلوك ومنهج الأخلاق بالعقيدة التي من مقتضياتها طاعة الله في أمره ونهيه عبر طمأنينة ورضى، يجعل المؤمن على حذر من سوء العاقبة؛ لأنه عندما يقع في المخالفة فقد سلك سبيلاً مغايراً لما يقتضيه الإيمان، وتُمليه عقيدة التوحيد. وهذا يعني سوء المصير يوم يقوم الناس لرب العالمين لأنه قد رضي لنفسه أن يتمرغ في حمأة الظلم ويكون ــ إن لم يتب ــ من الظالمين.

ولذلك يبدو من الضرورة بمكان، أن يحافَظ ــ بمنهجية وصدق في الوجهة ــ على هذا الارتباط بين الإيمان والسلوك عند المرأة والرجل على السواء وإلا دخل النقص وكانت السوأى هي العقبى. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهي تعني ــ كما أسلفنا ــ فيما وراء ما تختص المرأة دون الرجل أو العكس.. تعني (ويا أيتها اللواتي آمن). ما دام خطاب التكليف واحداً ــ كما ذكرت آنفاً ــ وما تختلف به المرأة عن الرجل من أحكام، تابع لحكمة الله في التكوين وسبحان الحكيم الخبير.

ثم إن البعد عن حقائق الإيمان كثيراً ما يكون من الفراغ، فالفراغ يساعد على التطلع الفارغ إلى ما عند الآخرين، ورصد تحركاتهم، وقد يوقع في السخرية والاستهزاء والاستصغار. فالوقت عند هؤلاء: بدل أن يكون وعاء خير ونماء في

طاعة الله، ينقلب إلى مباءة إثم، ولا غبن أشد ـ على ساحة التعامل مع الوقت ـ من هذا الغبن كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري والترمذي وغيرهما: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**» .

فإذا شغلت المرأة بالنافع: باعد ذلك بينها وبين أن تشغل وقتها بما لا يجدي وكذلك الرجل.

إن كثيراً مما نشكوه في مجتمعاتنا الضيقة أو المتسعة اليوم من سوء السلوك وتناقض العلم مع العمل واضطراب حبل العلاقة بين الناس والأقربين منهم بخاصة، مردّه إلى هذا الانفصام المريع بين الإيمان والسلوك ـ الأمر الذي يدل على ضعف سلطان العقيدة على عقل المسلم وقلبه ـ ثم عدم شغل الوقت بما ينفع الإنسان نفسه وأهله ومجتمعه. ومن الخطل بمكان ما قد يظن بأن هذه القضية قضية هامشية بل إنها من القضايا الجذرية في بناء الإنسان والتي لها انعكاساتها العميقة الجذور في المجتمع.

obeikandl.com

سورة الحجرات.. وبناء المجتمع المتماسك بوجوده الذاتي

« ٤ »

المجتمع النظيف المتماسك الذي أقامه المنهج القرآني في المدينة وزاول بناءه على أرض الواقع والحركة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعه أصحابه الكرام الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه.. هذا المجتمع ما كان ليكون كذلك لولا تلك الهداية الربانية في رد العمل والسلوك إلى الإيمان الذي من مقتضاه إحكام البنية الأخلاقية، والحيلولة دون أن تتحكم في السلوك العملي والأخلاقي مصالح قريبة قد تسيء إلى الآخرين، أو هوىً متَّبع يعمي صاحبه عن مراعاة حق الأخوة، ومقتضيات الإيمان، وما تعنيه رحلة البناء ضمن الجماعة المسلمة التي تهدف ـ فيما تهدف إليه على هدي الرسالة الخاتمة ـ إلى أن تقيم المجتمع الأمثل المعافى في بُناه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها والذي يحمل قابلية النمو والتطور إلى ما هو الأفضل.

وأقول إلى ما هو الأفضل، لأنه ليس كل تطور يكون سليماً، وأخذ كلمة التطور على إطلاقها كما يعنُّ للمأخوذين ببهرج الغزو الفكري أن يأخذوها، دون النظر المتبصِّر فيما يراد منها، وتاريخ وجودها عند غيرنا نتيجة ملابسات معينة، ليس أقلَّها فصل الدين عن الدولة، وما كان موقف الكنيسة من العلم. ثم الدعوة إلى أن يكون الأخذ بها عنوان التقدم والرقي، والانعتاق من ربقة التخلف، ويعنون بذلك الإيمان بوحي السماء والغيب وما إلى ذلك. وقل مثل ذلك في الدعوة إلى ما يسمونه «التحديث» على إطلاقه؛ لأنه يجمع بينهما جنوح مشبوه إلى التحلل من الثوابت في الكتاب والسنة، ومحاولة تفسير التاريخ والوقائع تفسيراً مجافياً للحقائق التي يشهد لها الوحي.

والمسلم مدعو إلى أن يطوِّر أساليب العمل والحركة، وأن يأخذ بالوسائل التي هي من ثمار العلم ــ والتي يصل ــ بعون الله ــ من طريقها إلى التمكين للإسلام وأهله في الأرض، بما لا يتعارض مع شيء من الكتاب والسنة ومفهوم أئمة الهدى والعلم منهما ــ لأن الحق من عند الله لا يعتريه شك في نفس المؤمن، والإسلام دين الله، والكون والإنسان والحياة من خلق الله.

وذلكم ــ دائماً ــ هو الطريق السليمة في مزاولة عملية البناء الكبرى بتعدد ميادينها والحاجات المتجددة الطارئة في المجتمع، بحيث يستفاد من التجربة ومن النتائج التي يصل إليها العلم التجريبي وغيره، دونما عدوان على الأصالة وحقيقة الانتماء إلى الرسالة الخاتمة التي جعلت ــ كما أراد الله تعالى ــ من أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وهداها الله إلى عمارة الأرض وبناء الحضارة الإنسانية في ظل العبودية الحقة له، وسخر لها ما في الكون جميعاً، بمنهج شامل كامل متوازن مبرأ من تلك الثغرات ــ وما أكثرها ــ التي تعاني منها الحضارة المادية الراهنة في المنهج الذي قامت عليه.

أقول هذا ــ والحديث موصول ــ بعطاء الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات التي يحسن تجديد الذكرى بها، وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقد سبق أن أشرت إلى دلالة الآية ــ بالنهي القاطع ــ عن السخرية بالآخرين وازدرائهم، سواء كان ذلك على صعيد الأفراد أو الجماعات.

ولا يرتاب منصف في أن تنزه المجتمع المؤمن عن هذه الخصلة الذميمة مدعاة إلى الصفاء النفسي والتماسك والتآزر، والإفادة من الطاقات الفاعلة، في إطار من التعاون المثمر بين أفراد المجتمع على اختلاف الطاقات والقدرات، وتآزرهم على كل ما فيه سلامة هذا المجتمع وتنمية فاعليته لتحقيق رسالة الإسلام، وتسامي القدرة الذاتية عند الجماعة، والسير بها نحو بنية حضارية لا يعوزها النقاء والشمول.

ثم جاء النهي الجازم في الآية أيضاً عن أن يلمز بعض المسلمين بعضاً بالتنقُّص والالتماس للبرءاء العيب. وعندما يطعن بعض المسلمين ببعض، فقد طعنوا أنفسهم لأنهم إخوة، وهذا من أسوأ عوامل التخلخل والضعف، وقد يرتدُّ على ذلك البعض، طعنه لأن العيب فيه وليس في إخوانه.

وتقرير هذه الحقيقة حقيقة أن الأخوة الإيمانية تجعل من إيذاء الأخ لأخيه إيذاءً لنفسه لأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ هذه الحقيقة تنوَّعَ في القرآن التعبير عنها في عدد من المواطن؛ من مثل قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. حيث جاء الخطاب بردِّ الضمير إلى الجماعة، فقتل المسلم المسلم ـ لا سمح الله ـ قتلٌ لنفسه بالمآل، وأكل المسلم مال المسلم بالباطل اعتداء على ماله هو.. وهكذا... ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وإن كان للمعنى وجه آخر ـ كما ذكرت آنفاً ـ ولا تعارض.

والحق أن بناء المسلم على هذه الحقيقة يشعر بمزيد من المسؤولية عن حراسة القيم التي تحكم المجتمع، وتضمن قابليته للعطاء، بعيداً عما يعكر صفو العلاقة بين الأخ وأخيه أو بين جماعة وجماعة أخرى من المسلمين وهم يعملون لتحقيق غاية كريمة واحدة.

ذلك بأن ذلك يشعر الجماعة بوحدتها، وإشعار الجماعة بوحدتها ـ وأعني بذلك جماعة المسلمين ـ ينمي في نفس المسلم أيضاً إدراك أن إيذاء الفرد إيذاء للجماعة، فلمز الفرد والطعن عليه لمز للجميع، وأكل ماله بالباطل عدوان على الجميع، ناهيك عن العدوان بالقتل أو غيره والمعاذ الله!!.

وللكلام بقية تتعلق بالنهي عن خلق ذميم ثالث وهو التنابز بالألقاب فيما يأتي إن شاء الله.

obeikandl.com

سورة الحجرات... وإلى قراءة جديدة في البناء

« ٥ »

ألقينا عصا التسيار في كلمات قريبات عند قول الله تبارك وتعالى في الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ما تدل عليه الآية من نهي عن اللمز وهو أن يعيب المسلمون بعضهم بعضاً، فيطعن فيه بأي صورة من الصور قولاً كان ذلك أو فعلاً أو ما هو منهما بسبب، وذلك كثير. ولقد جاء النهي عن الانتقاص بالفعل في القرآن وتُوُعِّد فاعله في أكثر من موطن.

فلقد سميت إحدى السور القصار ــ كما أشرت من قبل ــ بسورة الهُمزة وهي مبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ فهذا المتوعّد بالويل جمع بين شدة الاغتياب، فهو مغتاب غيّاب للآخرين، وهو يتنقص ويلتمس للبرءاء العيب وفي التعبير القرآني ﴿وَيْلٌ ...﴾ الآية من التهديد والوعيد ما هو ظاهر؛ فالهمَّاز اللمَّاز ملعون والعياذ بالله.

والويل ــ كما سبق ــ وادٍ في جهنم أو لون من ألوان العذاب كما يقول أهل التأويل وفي معرض الذم قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ فهو يحتقر الناس ويلمزهم طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي من اللمز بالمقال.

ثم انتقلت الآية الكريمة ــ من سورة الحجرات ــ إلى النهي عن خصلة ذميمة أخرى وهي التنابز بالألقاب؛ فالمؤمنون منهيون عن أن يدعو بعضهم بعضاً باللقب السوء، لأن الأصل أن لا يسيء الأخ إلى أخيه، وأن يكون سلوكه في التعامل معه على الشكل الذي

يحفظ الود، ويقوي الأواصر؛ فإذا كان هنالك لقب يسوؤه، فدعوته به لا تجوز، وتأكيداً للنهي عن هذا التنابز جاء التنديد به والوعيد عليه كما هو واضح في قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي بئس الصفة والاسم: الفسوق والتنابز كما كان أهل الجاهلية يتداعون ويتناعتون، بعد ما أنعم الله عليكم بالإسلام وعقلتموه. وأين أخلاق الجاهلية التي قد يهين بعضها الإنسان ويسهم في زلزلة المجتمع، من أخلاق الإسلام التي تكرم الإنسان وتبنى صروح المودة والتعاون على الخير.

ولعل ما يزيد الأمر وضوحاً: ما جاء في الواقعة العملية التي كانت سبب النزول؛ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي جَبيرة بن الضحاك رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية بني سلمة، قال: قدم علينا رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان، أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا فلان»، فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم: فأُنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ هذه رواية أبي داود.

والمراد طبعاً بعض من الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات. وعند الترمذي قال: كان الرجل منّا يكون له الاسمان والثلاثة، فيُدعى ببعضها، فعسى أن يكره، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

هكذا يُعنى القرآن هذه العناية ببناء الإنسان على هذه الشاكلة، كما يُعنى بالحرص على سلامة العلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض، فيتابع السلوك حتى فيما يجوز أن يدعو بعضهم بعضاً به أو لا يجوز. فما بالك بما هو أكثر وأكثر، وذلك كله كائن ــ ولله الحكمة البالغة ــ كيما يتسنى لهم بناء المجتمع وصيانته عن كل ما يضطرب معه حبل الود وتختل بسببه مسيرة التعاون البنّاء بين الأخوة المنوط بهم حمل العبء والنهوض بالتبعات على هدي دعوة الإسلام التي هي دعوة الحياة: فهل من قراءة جديدة متدبرة لمعالم العطاء في القرآن الكريم، يترجمها الإخلاص والصدق إلى واقع حي على ساحة التغيير! نرجو من الله ذلك.

البناء.. وما يعنيه ختام الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات

«٦»

حاجة المجتمع إلى ضوابط الأخلاق الكريمة في نظرة الأفراد والجماعات بعضهم إلى بعض، وفي السلوك الذي ينتظم التعامل فيما بينهم: حاجة على غاية الأهمية. والعلاقةُ الوثيقة بين الأخلاق والعقيدة التي تتمثَّل في سلامة السلوك ــ كما أراد الإسلام ــ: لا تخفى، وقد كان من عناية القرآن بهذا الأمر الجلل: أن عرض له في مواطن عدة من آيه بل رأينا سورة مدنية ــ هي سورة الحجرات ــ تفرد تقريباً لهذا.

ورحلتنا المباركة مع معالم هذه السورة انتهت بنا إلى الآية الحادية عشرة التي رأينا من عطائها على ساحة العلاقات الاجتماعية، توجيه المسلمين ــ وهم يمارسون عملية البناء لهذا المجتمع القدوة في العالمين ــ إلى ما فيه تقوية أواصر المودة والتآخي بين المؤمنين وصيانة هذا المجتمع عن التفكك الذي يعود على عملية البناء وصيانتها بالضعف والانحلال.

وقد ختمت الآية بما يؤكد وجوب الالتزام باجتناب تلك الأخلاق الذميمة التي جاء النهي صريحاً عن الوقوع في شيء منها، حيث رأينا ما يشي بوجوب التوبة إن حصلت المخالفة، وتوعُّد من لم يتب، بالحكم عليه بأنه ظالم لنفسه وللآخرين، ولذلك ما له من عقابيل لا تحمد عقباها في الدنيا ويوم الدين.

وما ختمت به الآية هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هكذا يلاحظ بوضوح: أنه بعد النهي الجازم عن أن يسخر قوم من قوم أو نساء من نساء وعن أن يعيبَ المؤمنون أنفسهم فيطعنَ بعضُهم على بعض بمقاله أو فعاله أو غير ذلك...، وعن أن يدعو بعضهم بعضاً باللقب الذي يسيئه والتنديد بذلك... بعد هذا كله ختمت الآية بقوله جل وعز: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إنه تنديد واضح بتلك المنهيات والوقوع فيها أو في بعض منها ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ الخروج على الحق، والعدول عن الصراط السوي بعد الذي يوجبه الإيمان من استقامة السلوك. ومن لم يتب عن ذلك كله. وهو مجموعة تلك المنهيات أي شيء منها؛ إذا تمرَّغ في حمأة ذلك: فقد تجاوز الحدود المشروعة في التعامل بين المؤمنين الذين جمعت آصرة التوحيد بينهم وألّفت بين قلوبهم كما شاء الله جل شأنه. أجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لا فرق بين ذكر وأنثى من أهل التكليف، والتنبُّه لذلك غاية في الأهمية.

وإذا كنا على ذكر مما يشرق به المنهج القرآني من التكامل في منهج البناء ـ بشتى ميادينه ـ نجد من الدقة في تطبيق هذا المنهج بالنسبة للفرد والجماعة: ما يلاحظ من الأهمية لتنزيه المجتمع عن تلك الخلائق الفتاكة؛ فالنهي ـ في الأصل ـ يقتضي التحريم، ومن أجل ذلك يفترض بالمسلم رجلاً كان أو امرأة أن ينتهي ـ بدافع من إيمانه ـ عما نهى الله عنه لأن حراماً عليه أن يعصي الله فيرتكب المحرم الذي نهاه سبحانه وتعالى عنه، ومن الإعجاز: ما صحب الحكم من الدليل الناصع المقنع لمن أراد مقنعاً، وحسبك أن أحكام النهي عن تلك المذمومات بدئت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً بالقاعدة التي تبنى عليها الأحكام المطلوب العمل بها ـ كما سبق غير مرة ـ، وإن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات من مقتضيات الإيمان.

فالالتزام برهان صدق هذا الإيمان، والآية الكريمة جمعت إلى النهي هذا التنديد بمن لا يتوب عن ذلك كله حين يقع فيه وَوَسَمَهُ بسمة الظلم على سبيل الحصر، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وإذا كان الظلم في الأصل هو التجاوز ـ كما ذكرت آنفاً ـ ووضع الشيء في غير موضعه الشرعي؛ فهؤلاء ـ المقصودون

بالوعيد ــ هم الظالمون لأنفسهم بمعصيتهم ومخالفتهم، وهم الظالمون للجماعة والمجتمع بإتيانهم نوعاً من السلوك يتنافى مع أخوة العقيدة، ويعرِّض الجماعة للتفكك، والمجتمعَ لألوان من الاهتزاز هو في غنى عنها، لأن التفكك في الجماعة وضعف الأواصر التي تربط الأخ بأخيه، وتنمي ــ لأنها من الإيمان وإليه ــ حبَّ التعاون على البناء من أعماق النفس، وكلُّ ذلك ينعكس على بنية المجتمع بشتى وجوهها وميادينها، وكم ذا ترى من الأمثلة الناطقة بهذا على كل صعيد، ولكن أين القلوب؟؟.

وواضح أن منهج القرآن في بناء الفرد والمجتمع لم يقتصر على وضع الأسس السليمة، بل شفع ذلك بتوجيه من يزاولون عملية البناء، إلى السلوك الأمثل الذي من ثمراته: ضمان استمرار البناء، وتنمية قدرته على العطاء، تحقيقاً للهدف الكبير، وهو تقديم الإسلام وأحكام الإسلام وأخلاق الإسلام خالية من الشوائب، كي تمثل الصورة الحركية على أرض الواقع، لا أن يظل الإسلام حبيس الأوراق وعقول أصحابه المنحسرين عن العمل راضين، أو مغلوبين على أمرهم بقهر الظلمة والطغاة أعداء الله والإنسان.

والعظيم في الأمر: تعميق إحساس الفرد بالعلاقة الوطيدة بين معتقده، وبين النهج الأخلاقي الذي يلتزمه وهو يتعامل مع الآخرين، أولئك الذين يصحبهم بخطاً تظللها أخوة العقيدة في رحلة البناء ــ على أنقاض موروثات جاهلية هنا وهناك ــ بكل تبعاتها ومسؤولياتها؛ فإن زلت قدمه فظاهَرَ على الخلق الإسلامي: فقد خالف عما به يؤمن وإليه يدعو ويرفع عقيرته به حيث دعوى الحرص على أن تكون كلمة الله هي العليا، والذود عن حياض الإسلام، وصدق فيه من بعض الوجوه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصف: ٢].

وأنت واجد أن ذلك كله، محال أن يقتصر على زمان أو مكان أو مجموعة من الناس؛ فهو دائماً ــ كما ينطق الفرقان المعجز ــ للمسلمين في واقع حياتهم، وممارستهم لشؤونها، وهم ينشئون بشرعة الإسلام وأخلاق الإسلام هذا الواقع،

ويأخذون بأسباب التمكين في الأرض، فيعمرونها كما أراد الله، ويسهمون في إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها لإرهاب عدو الله وعدوِّهم، فيضربون في كل ميدان من ميادين الحياة التي لا تنفصم عراها عن النظر إلى الآخرة وما يمكن أن تكون العاقبة فيها، إذ إنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار.

كل أولئك ـ كما هو المطلوب المؤكد ـ على هدي من معالم الكتاب العزيز، وبيانه المبارك من سنة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وإذن: فالنظرة من خلال الواقع المعاصر ـ والمسلمون وهم يعانون ما يعانون، على عتبة انطلاقة جديدة بعون الله ـ توجب أن يؤخذ جيل البناء اليوم بما أُخذت به أجيال البناء الأُوَل الذين صنعوا من الخير ما صنعوا في تاريخ الإنسان عبر القرون. وهدايةُ القرآن، وبيانه من سنة النبي ﷺ، وما فقهه أئمة الهدى من النصوص فيهما.. أمانة في أعناق المسلمين ـ بعامة ـ وفي أعناق من بيدهم كلمة الفصل والنفاذ فيهم على ساحات البناء والإنماء ـ بخاصة ـ لما أن مسؤوليتهم تضَّاعف بمقدار الثغور التي أقامهم الله عليها، وأوتوا من المكانة والقدرة على التنفيذ ما لم يؤت غيرهم..

والمُخلِص كلُّ المخلِص لهم وللأمة: مَنْ حذّرهم سطوة الجبار وعقابه، إن هم تهاونوا في أمر الأمة واتخذوا أعداء الله أولياء. ولله عاقبة الأمور.

البناء الاجتماعي.. وآية من سورة الحجرات

«٧»

المحور الذي أدير عليه الحديث في صفحات قريبات، حمل الإشارة إلى ما تعطيه بعض الآي في سورة الحجرات ـ وهي سورة مدنية ـ إلى ما تعطيه ـ وهي تنير السبيل لمن حملوا أمانة البناء في المجتمع الوليد ـ من إحاطة للعلاقات الاجتماعية الندية بشذى الإخاء الإيماني، بسور من الأخلاق الكريمة، وتحريم نقيضها، وبالسلوك المنضبط بضوابط العقيدة عند تعامل الأفراد بعضهم مع بعض في المجتمع المسلم. وأنَّ الجنوح عن ذلك الصراط السويِّ: أمر جدُّ مستنكر؛ فإن تاب عنه صاحبه فبها ونعمت، وإلا كان ظالماً والظلم غير محمود العقبى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وعلى هذا المحور المضيء، ينتقل بنا المعلم القرآني إلى الآية الثانية عشرة من السورة نفسها وهي قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

إنه ما دام المسلمون حَمَلَةَ رسالة ختمت بها الرسالات، يراد لهم أن يبنوا المجتمع المنوَط بهم قياده على هديها، كيما يكون صورة عملية ناطقة، تحكي صلاحيتها المطلقة لبناء الحياة بعيداً عن الزغَل ونسيان الله واليوم الآخر، على الوجه الأكمل... ما دام المسلمون على مثل هذه القضية الكبرى في بناء المجتمع القدوة في الأعصر كلها: فلا بد أن يكون الفرد المسلم، والجماعة المسلمة، على المستوى الذي يتواءم مع عظم المسؤولية وضخامة التبعات.

من أجل هذا، نرى في معالم الكتاب العزيز ما نرى من حرص على استقامة السلوك عند الجميع، وعلى حسن العلاقة بين الأفراد والجماعات، في إطار الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما يرتبط بها ـ وهو من بعض حقها ـ من أخلاق تزين التعامل، وتطبع سلوك العاملين.

وقد رأينا شيئاً من ذلك فيما صحبنا من آيات سورة الحجرات، والآية التي جرى إثباتها آنفاً، تحمل ـ أول ما تحمل من كريم التوجيه ـ أمْرَ المؤمنين باجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وتنهى عن التجسس ـ وما أقبحه ـ وعن الغيبة التي لها من سوء الأثر ما لها.

وهذا النهي عن الغيبة أتبع بصورة فائقة التعبير، تنفّر من هذه الخصلة الذميمة أشد التنفير ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ثم ختمت الآية بالأمر بتقوى الله ـ والتقوى منبع الخير ومعيار العمل ـ فالله تواب رحيم لمن تاب عن ذنبه، وأناب إلى مولاه، وصدق في التوكل عليه.

هذا: وقد بدئت الآية الكريمة ـ شأن التي سبقتها ـ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو النداء الذي يستثير القلوب والعقول لاستذكار القاعدة التي ينبني عليها التكليف. وقد جاء الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على التغليب بين الذكور والإناث؛ لأن خطاب التكليف للجميع واحد، وهذا لا يتعارض مع وجود أحكام تختصُّ بهؤلاء دون أولئك، تشير إلى حكمة الله في طبيعة التكوين، وعلى هذا: فالمراد ـ والله أعلم ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و (يا أيتها اللواتي آمن).

وبصيغة الأمر الجازم بالاجتناب، نهى الله عباده عن كثير من الظن ـ وهو التهمة والتخوُّن للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض الظن إثم أي مؤثم، وما أشدّ ما يهاب المؤمن الوقوع في الإثم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قال العلماء: وهذا الظن المؤثم كثير؛ كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين وهم كثير بخلافه في الفسَّاق منهم ومن على شاكلتهم ممن يرضون لأنفسهم الوقوف موقف التهمة ويأتون ـ فعلاً ـ ما يدعو إلى سوء الظن فلا إثم فيه في نحو ما ظهر منهم.

وإذا كان الأمر كذلك: فليُجتنَبْ كثيرٌ من الظن احتياطاً في دين الله، لكيلا يقع المسلم في تلك المعصية وتلحقه أوضارها، وقد يكون لها من العقابيل على صعيد العلاقات الاجتماعية ما الله به عليم؛ ذلك بأنه يترتب على الظن المنهي عنه مفاسد، ليس أقلَّها تقطيع الأواصر، وتفكك الروابط بين الإخوة في المجتمع الواحد ــ بل والأسرة الواحدة أحياناً ــ ناهيك عن فقدان الثقة وتعكير القلوب بين الأفراد، أو ما هو أوسع من ذلك!.

وقد يتعدَّى الوقوع في هذه الحمأة إلى فتنة هوجاء، يؤجج نارها الشيطان؛ الأمر الذي يوهن ــ إن لم تطفأ نار تلك الفتنة ــ بنية المجتمع، ويحول دون الإنجاز والتعاون على البر والتقوى.

وكل هذا ــ كما ذكرت آنفاً ــ في أهل الخير والصلاح من المؤمنين. أما الذين فسقوا، وخالفوا عن طريق أهل الإيمان وربما أعانوا الظالم على ظلمه إضافة إلى ظلم أنفسهم: فهؤلاء لهم شأن آخر.

وقد كان من توجيه النبي المعلم عليه الصلاة والسلام ــ وهو يقود عملية البناء المباركة على أنقاض جاهلية جهلاء دمّرت ما دمّرت في حياة الإنسان ــ ويرتفع بحامل الرسالة المسلم، إلى مستوى تلك العملية الكبرى، ما روى ابن ماجه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبيَّ ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظنَّ به إلا خيراً**».

والحق أنه لم يكن بدعاً ــ والبداية ترقى بالمسلم إلى هذا المستوى من الحرمة والتكريم ــ أن تكون هي التي شهد العالم فيها أسمى لون من ألوان الحضارة، تضافرت على بنائها بصدق وإخلاص، تلك الجهود التي تميّز أصحابها ــ في ظل أن جنسية المسلم عقيدته ــ بصدق الانتماء، وانصبَّت في قنواتها كل الكفايات من البُناة المؤمنين، حيث صفاء العقيدة والجهاد في سبيل الله ــ بشتى صوره ــ وكرامة الإنسان.

obeikandl.com

البناء.. ومؤشرات في سورة الحجرات

«٨»

هذه عودة إلى اصطحاب الآية الثانية عشرة ــ أو مفتتحها ــ من سورة الحجرات، في رغبة لاستلهام ما يمكن مما تشرق به من عطاء كريم فيما نحن بسبيله من الإشارة إلى ما حفل به المنهج القرآن من العناية بحسن التخلُّق المنضبط بضوابط الشريعة المطهّرة واجتناب كل ما من شأنه التجافي عن محاسن السلوك ومكارم الأخلاق.

وميدان السلوك ــ عموماً ــ والعلاقات الاجتماعية: من أوضح الميادين التي تبدو فيها ضرورة هذا الانضباط، حفاظاً على بنية المجتمع أن ينالها أذى التخلخل، والمنافرة بين الأفراد الذي هم بناته ومنهم يتكوَّن، والحيلولة دونه ودون عوامل الضعف أن تتسرب إليه.

ولقد يتأكد ذلك أكثر وأكثر؛ إذا كنا على ذُكْرٍ من أن سورة الحجرات التي نسعد باصطحاب واحدة من آيها، تنزلت والمجتمع الأمثل يخطو على طريق البناء ضمن ملابسات ورواسب لا تخفى، والحياة تمور بالحركة والوقائع المتجددة يوماً بعد يوم.

والآية التي نعني: هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾الآية. وقد كانت لنا وقفة قريبة عند هذا المطلع منها حيث الأمر الجازم باجتناب كثير من الظن ــ والخطاب بالأمر للمؤمنين ــ فالواجب اجتناب كثير من الظن بأهل الإيمان المستقيمين على طاعة الله، لأن بعض الظن مؤثم ــ يوقع في الإثم ــ وما أكثرما يعبث الشيطان بعقول البعض فيسيئون الظن بأهل الخير دون تثبُّت أو تبيُّن، وقد يغُضُّون الطرف عن الفُسَّاق الخارجين على نهج

الاستقامة، غفلةً، أو تهيُّباً من الضرر في دنيا من يسيء الظن بهم. وهذا مخالف لما يقتضيه الأمر من الوجوب في الآية ـ لأن الأمر في الأصل للوجوب، ولا يصرف عنه إلا بقرينة، ولا قرينة، بل قرينة ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تقرر ذلك الوجوب وتؤكده؛ فبعض الظن موقع في الإثم وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين ـ وهو اليوم سلاح من أسلحة المواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل ـ فما بالك إذا كان هذا الظن ـ في الأصل ـ متسع الجوانب وشعب التنقيب وتتبع العورات. أما الذين ينقادون للهوى وما يزيِّن لهم شياطين الإنس والجن من الافتئات على الحق وأهله: فأولئك لهم شأن آخر، وليسوا معنيين ـ والله أعلم ـ بهذا النهي عن اجتناب كثير من الظن لأن بعض الظن إثم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل.

هذا: وقد قادنا الحديث عن هذه النقطة في الآية الكريمة إلى ما لا بد من التذكير به وهو ما جاء عند ابن ماجه في السنن من رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، من تقرير النبي ﷺ لحرمة المؤمن عند الله وأنها أعظم حرمة من الكعبة المشرَّفة بيته المعظم، مالِه ودمِه، فالواجب أن لا يظنَّ به إلا خيراً، وفي ذلك نوع بيان نبوي للآية الكريمة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً».

يقول هذا عمر، وهو يعيش الحياة بكل شراشره في تعاون مع إخوانه على إحكام الواقع الجديد: فالأصل أن تظن الخير بما يقوله أخوك المؤمن، ولا يَعْدِل عقلك عن ذلك، ما دمت تجد لكلمته في الخير محملاً.

يوجه الخليفة الثاني هذا التوجيه، ولا يرتاب مرتاب في أنه كان ـ والحمد لله ـ على إرث من إرث النبوة فيما يزاول مهمة البناء المتكامل، والسهر على أن يكون الفرد والمجتمع على خير مستوى من القوة والسلامة، في توازن أقدر الجماعة المسلمة ـ بعون الله ـ مع تحقيق الوجود الذاتي على مواجهة التحديات، وإنجاز

الفتوحات العظيمة ـ التي كان بابها فتح القلوب لدعوة الخير ـ تلك الفتوحات التي حملت رسالة الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً إلى كثير من بقاع العالم، ورضي الناس بحكمها عن طمأنينة واقتناع.

ولا تخفى دلالة تلكم الكلمات من عمر رضي الله عنه على فقهه الدقيق لما تتركه العلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن من أثر فيما هو بسبيله من إنجاز ذلك البناء العظيم، حتى وصل إلى التنبيه على الكلمة تقال وكيف يكون الحكم عليها؛ وذلك قبس من تدبره لكتاب الله، وفهمه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولسنا هنا في معرض الكلمة البيِّن سوؤها، ومعروفٌ نهج صاحبها، في الإساءة، أو ابتغاء المسلمين الفتنة؛ فتلك قضية أخرى ـ خصوصاً وأن الضوابط التي نحن بصددها في نور الكلمات الهاديات تشمل كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ذكراً كان أو أنثى من المكلفين. ولكننا في معرض الكلمة أو الفَعلة التي تجد لها في الخير محملاً حين تحسن الظن، دونما غفلة، ولا جهل بواقع الحال، وذلك كائن في مجتمع ينقاد لعقيدة التوحيد، وتحكم سلوك أفراده أخوةُ الإيمان والعمل لمرضاة الله.

وقد أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»** ورواه مالك في «الموطأ».

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيَرَةُ، والحسد، وسوء الظن»** فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: **«إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيَّرت فامض»**.

من أجل هذا، كان واجباً أن يبدأ التغيير والإصلاح: من داخل النفس، لأن ذلك إذا حصل من داخل النفس، فانشرح الصدر للإيمان وانفسح، كان انعكاس ذلك على التصور والسلوك، وفق ما هو من مقتضيات الإيمان جميعاً.

وذلكم ما يراه المتبصر في المنهج الرباني، وفي الواقع الذي يغمر بضيائه المؤمنين طابعاً للعهد المكي، الذي كان قياد المجتمع فيه بيد العدو، فكان التركيز على بناء الإنسان المسلم من داخله وإعداده للمرحلة القادمة. وظل هذا الطابع مستمراً في العهد المدني؛ لأن الحاجة لليقظة الداخلية وتنمية الانبعاث المستنير من داخل النفس تظل قائمة، وقد تكون أشد عندما تبدأ مرحلة العمل الجاد تعاملاً وجهاداً والتزاماً بالأحكام...

يكشف عن ذلك دائماً ما تكررت الإشارة إليه فيما سبق، من الارتباط الوثيق بين العقيدة التي لها ما لها من الحق في واقع الفرد والجماعة وحركتهم في بناء الحياة، وبين السلوك، هذا الارتباط الذي يقرره ويؤكده تصدير الخطاب بالتكاليف غالباً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو ما يؤدي الغرض نفسه من إشعار المسلم والمسلمة بأن العمل بالتكاليف من مقتضيات الإيمان.

وما نحن بصدده من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ جارٍ على هذا السنن؛ فالمؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ واجب عليه اجتناب كثير من الظن، لما أن بعض الظن يكون إثماً محضاً، أو مؤثماً موقعاً في الإثم، والمؤمن ـ وهو ـ ينقاد من عقيدته، ويراقب ربه عز وجل، يقدر كلمة الإثم أو المؤثِّم قدرها، فيحاذر أن يتجاوز إلى ما فيه الإثم أو ما هو سبيل إليه ـ وما أكثر تسويلات النفس والشيطان.

لذا يفترض بهذا المؤمن أن يحتاط لنفسه، فيجتنب كثيراً من الظن بأهل الإيمان والاستقامة، لكيلا يقع فيما هو إثم محض، وهذا كثير ـ كما سلف من قول العلماء ـ كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين. قالوا: وهم كثير بخلافه بالفساق منهم، فلا إثم فيه في نحو ما يظهر منهم.

وبعد: فإن عنوان التوفيق في اليقظة الإسلامية، وتباشير استمرارها في صعود على الطريق المأمونة: أن يكون جيل التحويل واستئناف البناء المبتغى من جديد، على قدر لا يُحَدُّ من الوثوق بالمنهج الذي قدّمه القرآن ـ وهو كلام الله المبرَّأ من الخطأ بَلْهَ الباطل ـ وأوضح ملامحه قولاً وعملاً ومزاولةً لشؤون الحياة بشتى ميادينها الخيِّرة رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كانت سيرته العطرة ترجماناً عملياً محكماً لما دعا إليه وهو يبلغ رسالة السماء إلى الناس.

المنهج والعلاج على صعيد البناء

البناء وسورة الحجرات

« ٩ »

من سمات المنهج الرباني في القرآن الكريم: ما يرى الناظر المتدبر من ذلك الشمول الذي جعل المنهج لا يتقاصر ـ ولله المثل الأعلى ـ عن ميدانٍ ما، وهو يوجه حركة البناء للفرد والجماعة في ميدان آخر، وكم كانت الممارسة الفعلية للعمل بدين الإسلام أسلوباً فذاً من أساليب البناء؛ إذ لم يعد الفكر وحده في الساحة ولكن شاركه ـ على صور متجددة ـ العمل نفسه الذي يدعو إليه الفكر وهذا من أوضح أمثلة الشمول وسبحان الحكيم الخبير.

وتطهير الجزيرة العربية من أدران الشرك والجاهلية، وما هو منهما بسبب، من خلال المعارك المتوالية ـ التي صحبت الدعوة إلى الله بالحجة والإقناع ـ، وما كانت تحتاجه من صبر ومصابرة ومرابطة في سبيل الله، وبذل للأموال والأنفس، كل أولئك لم يَحُل دون توجيه المسلمين إلى الشجاعة في النقد الذاتي مثلاً وتقويم التحركات، ما كان صواباً منها وما كان خطأ..

كما لم يَحُل دون التنبيه على ترابط حلقات التاريخ، ووجوب الانتفاع بذلك، والتوجيه المتكرر إلى الاعتبار بالماضين، وكذلك لم يحل ذلك دون المتابعة الدقيقة للسلوك؛ كالذي نرى في سورة الحجرات؛ شأن المتابعة الدقيقة أيضاً في تطبيق شريعة الله ـ ولست هنا بسبيل الاستيعاب ـ وحسبي أن أشير إلى أن جماع ذلك كله: أن يكون المجتمع الذي يُبنى على هدي دعوة الإسلام، ترجمة عملية حيّة لما دعت إليه الرسالة الخاتمة التي تنزلت على محمد عليه الصلاة والسلام، وبلّغها ﷺ

بأمانة إلى الناس مبيناً كل ما يجب بيانه من القرآن الكريم، والتي تُسلم من يأخذونها بقوة وأمانة في التطبيق، إلى التمكين في الأرض، وعمارتها بما ينفعهم، وينفع الآخرين، كما تسلمهم إلى سعادة الدارين، فهم بالغون سعادة الدنيا، فائزون بمرضاة الله وجنة عرضها السماوات والأرض يوم يقوم الأشهاد.

وفي سورة الحجرات ـ كما أسلفنا ـ عناية بالغة بالسلوك تجنب المجتمع ويلات الفرقة والتفكك، وتساعد على نموه وازدهاره؛ لما أن بُناته يتعاونون بثقة متبادلة على الخير، والكلُّ أمين على دمه وماله وعرضه ـ موطن المدح والذم من الإنسان ـ.

وها نحن أولاء نتابع الرحلة المباركة مع السورة المشار إليها والآية الثانية عشر منها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

ولقد صحبنا الآية في صفحات قريبات سلفت، وألقينا عصا التسيار عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والتجسس يطلق في الشر، ومنه الجاسوس لأنه يتتبع الأخبار للأذى، ويفحص عن بواطن الأمور. والنهي عنه واضح في الآية؛ فهو فعل حرام ينمّي سوء الظن، ويفسد العلاقات، وقد يوقع البريء فيما هو تهمة باطلة ومحض افتراء، ويجعل الناس قلقين على مصيرهم بسببه، ناهيك عما يفسد من النفوس، ويعدم من الثقة بين الإخوة لأنه يفرق بين الصديق وصديقه والأخ وأخيه؛ إذ يبيع الجاسوس القيم الرفيعة بدراهم معدودة ويكاد يفقد إنسانيته والعياذ بالله. وقد روى أبو داود وأحمد عن أبي أمامة وغيره عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

وهذا لون من ألوان البيان للآية يشير إلى واحدة من أسوأ صور التجسس وهي التي تكون بأمر من الحاكم: أما الآية الكريمة: فجاء النهي فيها عاماً حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والنهي للتحريم: أي حرام عليكم أن يتجسس بعضكم على بعض فيتتبعه تتبع تفتيش وتنقيب، والجاسوس سمي جاسوساً؛ لأنه يتتبع الأخبار والأحاديث عند الناس ويفحص عن بواطن الأمور بسوء نية.

أما التحسس بالحاء: فيكون غالباً في الخير، كما قال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام في خطاب لأولاده: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقد يستعمل كل من التجسُّس والتحسُّس فيما هو مستنكر؛ وقد مر بنا من قبل ما روى مالك في الموطأ والبخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**» وقد روى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي رحمه الله: «التجسس: البحث عن الشيء، والتحسس: استماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم، والتدابر: الصَّرم».

والتنافس المنهي عنه هو التنافس المؤذي الذي لا تحكمه ضوابط الشريعة وأخلاق الإسلام، أما التنافس في الخير: فمطلوب ومرغَّب فيه.

إن العلاج العملي لما يشكو منه المسلمون في مجتمعاتهم وبيئاتهم المختلفة من سلوك يعوق التعاون والإنجاز، وقد يعطِّل بعض الجوانب في مسيرة البناء. إن هذا العلاج كائن في إحلال المنهج الرباني مكانه اللائق على صعيد التربية والإعداد والسلوك، بدقة وتوجيه إيماني سليم.

obeikandl.com

سورة الحجرات ـ وكلمات أخرى في البناء والمنهج

«١٠»

ليس من مكرور القول أن نشير مرة بعد مرة، إلى أن عناية القرآن حتى بالجزئيات من السلوك، وتبصير المؤمنين بطبيعة العلاقة بين الإيمان وبين هذا السلوك؛ كالذي نرى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الآية: دليل واضح ـ والله أعلم ـ على ما يرمي إليه المنهج الرباني، وهو من عند الله العليم علماً محيطاً بما يصلح عباده.. أن يكون المجتمعُ الذي يبنيه المسلمون على هدي دعوة الحق والخير، ذلك المجتمعَ النظيف، الذي لا تطغى فيه الأهواء، ولا يرتفع بين جنباته لواء الانحراف والدخَل الذي يصيب بعض النفوس.

المجتمع الذي يضم إلى قدرته الثقافية والاقتصادية والسياسية.. سلامة البنية الاجتماعية، والتسامي في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، في أي حلقة من حلقات التعامل، وهم يحملون أعباء البناء على أنقاض الجاهلية علماً وعملاً وجهاداً وصبراً على لأواء الطريق متعاونين؛ لأنهم كلَّهم منقادون للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي جمع الله عليها قلوبهم وألّف على نورها بينهم، مخلصون في ابتغاء مرضاة الله والنجاة يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

وفي الوقت نفسه: ترى همَّ الواحد منهم أن لا يصدر في تصرفاته ـ ولا ندّعي لأحد العصمة بعد خاتم النبيين ـ ما دقَّ منها أو جلَّ، إلا عن الحق الذي نزل به الكتاب، وبيَّنه صاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام؛ غير ناسٍ أن رباط الأخوة الإيمانية الذي يتحرك الجميع في ظله، قد عقد آصرته ربُّ العزة من فوق سبع سماوات؛ فكان المسلمون بنعمة الله إخواناً.

ولعل من الأهمية بمكان: التنبيه على أن هذا الذي نقول، ليس تحليقاً في عالم من التجريد تستعصي فيه الأفكار على الواقع في حياة الفرد والجماعة والحاكم والمحكوم ــ كما يزعم أولئك الذين يصرفهم الباطل الذي يتمرغون فيه عن رؤية الحق الذي عند غيرهم ــ بل إن المجتمع الذي نُلمِّح إليه، تبصره ــ وأنت تقرأ تاريخ هذه الأمة ودون زعم العصمة لأحد بعد النبيين كما ذكرت آنفاً ــ تبصره حقيقة واقعة في دنيا الناس، فما أن خالطت بشاشة الإيمان القلوب، وأحبَّ القوم رسول الله أكثر مما يحبون أنفسهم، وآمنوا بغيب الآخرة إيماناً جعلهم كأنهم يرونه رأي عين، حتى رأيت من هؤلاء البررة العجب العجاب وهم بشر من البشر ولكنهم آمنوا وصدقوا، وأحبوا رسولهم وجاهدوا صادقين، وكانت هجيراهم رضى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وبذلك استطاع الرعيل الأول أن يقدموا للبشرية ما هو ترجمة عملية لما وجه إليه القرآن، وبينه قولاً وفعلاً وإقراراً وعلى صعيد الممارسة والتطبيق في البيت والمسجد والسوق وساحات التعامل بمختلف صورها في السلم والحرب: خاتمَ النبيين محمد ﷺ؛ وبذلك كانوا الجنود الأمناء الأوفياء لهذا الإسلام وهم يمارسون إنشاء الواقع الجديد المبرأ من أوضار الوثنية والجاهلية وكل ما هو منهما بسبب، تحت قيادة نبيهم المصطفى وإمامهم المجتبى محمد عليه الصلاة والسلام. والخير باقٍ في هذه الأمة إن شاء الله.

وغير خاف أن آيات الكتاب الكريم، ومن ورائها بيان النبي عليه الصلاة والسلام، تجمع إلى التوجيه البيِّن وتحديد معالم السلوك ــ في بيانٍ لما يعقبه الالتزام أو عدمه من مآل ومصير ــ تجمع إلى ذلك كله، متابعة لكل خطوة، ورقابة على كل بادرة ــ هذا مع ما يكون من الوازع الداخلي ــ فما كان من ذلك صواباً: أقرته وأعانت عليه، وما كان خطأ قوَّمته ودلَّت على طريق تصويبه، أو الإقلاع عنه.

هذه كلمات في المنهج دعت الضرورة إلى ما قد يبدو إطالة فيها، وددت أن أسوقها هنا؛ لأنها ذات نسب إلى تلك الملامح التي ترسمها معالم القرآن الكريم على هذه الساحة ـ ومن تلك الآيات التي نحوِّم حولها في سورة الحجرات ـ لصيغ التعامل، وطرائق السلوك في المجتمع القدوة الذي برز في دنيا البشرية وهي أشد ما تكون عطشاً إليه في تلك الحقبة من الزمان، بعد أن طال انتظارها منذ أمد بعيد.

وفي حديث موصول بالآية الثانية عشرة من سورة الحجرات التي سبقت الإشارة إليها نذكر ما جاء في تلك الآية الكريمة من قوله تعالى بعد الأمر باجتناب كثير من الظن، والنهي عن التجسس: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولا يخفى ما في هذا النص من التحريم القاطع للغيبة التي هي: ذكر المؤمن أخاه المؤمن ـ كما بين الرسول ﷺ ـ بما يكره وإن كان منه، والمفروض بالمؤمن أن يهزّه النهي في القرآن والسنة من الأعماق، فيخاف على نفسه الوقوع فيما حرّم الله ورسوله، ويسعى جاهداً ـ ما وسعه الجهد ـ لاجتناب ذلك.

أخرج الإمام أبو داود في «السنن» بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال ﷺ: **«ذِكْرُك أخاك بما يكره»**. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: **«إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بهتَّه»**.

وإذن: فما هو واقع ويقع في كثير من المجالس، والمجتمعات الضيقة والمتسعة في دنيا المسلمين، من التهاون بأمر الغيبة والتفكه بها في المجالس بسهولة ويسر ـ وقد يكثر ذلك في بعض المجتمعات النسائية ـ إن هو إلا صورة من صور الغفلة وبلادة الحس، ومجاهرة الله ورسوله بالمخالفة عن أمر الشارع، والمأمول أن لا يكون من الأمراض المستعصية!.

وما من ريب في أن طريق المعالجة يبدأ من إيقاظ القلوب على كلمة الله، والحرص على مرضاته ومرضاة رسوله عليه الصلاة والسلام ومحاولة تحريك العقول؛ كيما تتنبَّه إلى المخاطر المرتقبة للتمرغ في حمأة هذا الخلق السيء على صعيد الأفراد والجماعات، وما قد تحدث من فتن، حتى يكون الإقلاع عن ذلك، والتخلق بضدّه من أخلاق أهل الإيمان: سمة من سمات المسلم والمسلمة؛ وإن هذه المعالجة لا بد أن تكون هدفاً من أهداف المسجد والمدرسة والبيت والمؤسسات التربوية والإعلامية؛ لأن التمادي في الغفلة يعود على الفرد ــ قائماً كان بالغيبة أو راضياً بها ــ بسوء العاقبة عند الله إن لم تحصل التوبة النصوح، كما أن ذلك ــ كما ذكرت آنفاً ــ عامل مدمِّر من عوامل الهدم في البيت والمجتمع ــ وما أكثر الأدلة والوقائع على ذلك ــ.

من أجل هذا كان النهي الجازم عن الغيبة: صورة من صور الدعوة القرآنية إلى صيانة حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم مما يعكِّر الصفو، ويحدث التخلخل، وقد يعود على عملية البناء في العديد من صورها بما لا تحمد عقباه.

مرة أخرى.. مع المنهج والبناء في سورة الحجرات

« ١١ »

ما يزال الحديث موصولاً بما كنا بسبيله من الاستنارة بما يدل عليه المعلم القرآني في الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وهذا الحديث الموصول بما سبق: بابتُه إلى ما نريد: كون هذه السورة سورة مدنية، تتنزل آياتها على الرسول ﷺ، وهو يقود المجتمع الذي شاء الله أن يُبنى بقيادته وتوجيهه صلوات الله وسلامه عليه، بعد رحلة العهد المكي التي كان قياد المجتمع فيها بمكة يستند إلى الجاهليين، وما أبعد منهجهم عن منهج الله الذي أشرقت به دعوة الإسلام؛ من هنا يمكن تقدير البناء الأخلاقي ضمن هذه الظروف والملابسات حق قدره، وتسويغ أن نكون على دقة في استذكار عناصره وفقراته.

وكما أسلفنا من قبل: يجيء النهي عن الغيبة في هذا البناء الأخلاقي المتوازن الشامل في أعقاب عدد من المناهي يبدو اجتنابها لصيقاً بسلامة البنية الأخلاقية لأصحاب رسول الله ﷺ مسلمين كانوا أو مسلمات، لأن المكلّف هو الأساس في تطبيق الشريعة أحكامها وأخلاقها، وكان من تلك المنهيات النهي عن أن يظن بالمسلم ظن السوء، وعن التجسس طامّةِ الأذى، فإذا أضفنا ذلك إلى ما ورد في الآيات السابقة تبدّت لنا ملامح منهج البناء الدقيق الذي لا يبارح حتى في الجزئيات، العناية بتحديد ما من شأنه على ساحة التوجيه، صيانة المجتمع عن الأذى بصيانة بُناته عن الوقوع فيما يتنافى مع الأخوة وصفاء القلوب، وتذليل الصعاب على طريق

البناء والنماء، لما أن الواحد منهم يُعَدُّ ليكون القدوة في دنيا الناس. وبذلك يستمر نظيفاً معافى يترجم عن حقيقة الدين: في عقيدته وشريعته وأخلاق أبنائه، والقدرة من خلال هذا على العطاء.

ولعل من الخير استذكار ما عرّف به رسول الله ﷺ تلك الخصلة المؤثمة ــ الغيبة ــ بأنها ذكر المؤمن أخاه بما يكره ولو كان ذلك موجوداً فيه. وقد أشرنا من قبل إلى أن الغيبة ذكر المسلم أخاه بما يكره، وذلك ما جاء في الحديث الذي نصَّ فيه النبي ﷺ على هذا التحديد، وهو يجيب سائلاً سأله عن الغيبة، وزاد على ذلك ببيان ما يكون بهتاً من المؤمن لأخيه حين يذكره بما ليس فيه ذلكم ما روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: «**ذكرُك أخاك بما يكره**» قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**» أي افتريت عليه الكذب والعياذ بالله.

والحق أن الآية الكريمة، قد حملت ما يدل على تأكيد التحريم الجازم لهذا الانحراف الآثم الذي هو من العدوان على إنسانية الإنسان، لما يترتب عليه من مفاسد، ليس أقلَّها تنافر القلوب، والفتنة الهدَّامة في بعض الأحيان. ناهيك عما يكون لذلك من انعكاسات سلبية على تحقيق ذلك الأمر العظيم الذي أمر به المسلمون من التعاون على البر والتقوى، بمفهوم البر الواسع وهو جماع كل خير، والتقوى بمفهومها الحقيقي الذي يسمو بها إلى مستوى أن تكون العنوان المشرق على الالتزام بالأحكام، والتخلق بأخلاق الإسلام، في جمع بين استقامة عمل الجوارح وعمل القلوب؛ وبذلك يكون التعاون على البر والتقوى تعاوناً لا يدع صغيرة ولا كبيرة مما هو من معدن الخير والفلاح ــ مهما تطور الزمن ــ للفرد والمجتمع والأمة إلا اتسعت له ساحة هذا التعاون، فإذا ذكرنا النهي عن التعاون على الإثم والعدوان كان ذلك أدعى لاكتمال الصورة المؤذنة بالتكامل والشمول والتوازن بتكرر الإشارة إليه ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

ومما يستوقف الناظر: هذه اللمحة من لمحات الإعجاز في توكيد الصرف عن الغيبة: ما انضم إلى النهي الذي هو للتحريم، من تلك الصورة الصارخة المنفرة من ذلك الخلق الذميم أشد التنفير!!.

حيث شبَّه الله الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت، بل بأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً، فهو لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، وفي الوقت نفسه هو ميت ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ أي كما تكرهون هذا ـ وهو على هذه الصفات الثلاث ـ طبعاً، فاكرهوا الغيبة شرعاً وهذا أمر في غاية التنفير؛ فكأن الشذوذ في أكل لحم الأخ ميتاً، يوضح الشذوذ في الغيبة التي هي هذا العدوان المعنوي المقيت المستكره. وحسبك أن الله نهى عن ذلك وحرمه!!.

وفي سيرة الرسول ﷺ وهي التطبيق العملي لشرعة الإسلام: ما يلقي مزيداً من الضوء على هذه القضية وحجمها في البناء الأخلاقي؛ فقد روى أبو داود في «السنن» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: «حسبُك من صفية ـ تعني قِصَرَها ـ فقال رسول الله ﷺ: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**» قالت رضي الله عنها: وحكيت له إنساناً ـ حاولت تشبيهه ـ فقال: «**ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا**» ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

حكى الإنسان: فعل مثل فعله من حركة يكرهها أو غير ذلك.

وفي توجيه إلى إحكام البناء من داخل النفس كيما تستقيم الجوارح، ويصلح بصلاحها السلوك، ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

فإذا استنار القلب بالتقوى، فعمل العبد على وقاية نفسه من غضب الله وعذابه، قياماً بالطاعات، واجتناباً للمنهيات واستزادة من القربات ـ ومن عيونها الجهاد في سبيل الله ـ بصدق وجهة وإخلاص في الدين، ناهيك عن مراقبة الله وخشيته في السر والعلن، كان من وراء ذلك الخير الكثير الوفير في الدنيا والآخرة. والتقوى كما تنشىء الوازع الداخلي، تعني الاستمرار في طريق السالكين الأوفياء بعهد الله

الأمناء على العمل بدينه بصدق وإخلاص؛ ذلك بأنها تصبح ملكة عند المسلم تستنير تصرفاته بنورها بدون تكلّف. الأمر الذي يضمن استمرار ذلك الوازع النفسي من الداخل ونماءه وقوته.

والله تعالى توّاب ــ وهذه صيغة مبالغة دليل عظيم الفضل والإحسان ــ على عباده يتوب على من تاب منهم التوبة النصوح، رحيم بهم، يدلهم على الخير ويهديهم إلى ما فيه سعادة الدارين.

ولكم يريح المربون أنفسهم، ويوفرون للمجتمع كثيراً من الطاقات المهدرة، إذا عملوا على إحكام البناء على التقوى وحسن الصلة بمعالم الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فيما تهدي إليه على كل الأصعدة، ومن ذلك سعادة الدنيا والآخرة.

obeikandl.com

وقفات مع آيات البناء الذاتية.. وعدم الوقوع في التقليد الأعمى وسورة النساء

التالي لسورة النساء، يقرأ فيما يقرأ قول الله تعالى في الآية السادسة والأربعين: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقد جئنا على ذكر هذه الآية الكريمة بإشارة عجلى عند الحديث عن عطاء المعلم القرآني في الآيتين الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة وهما قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

وقد أدير الحديث المشار إليه حينذاك: على تحرير المسلم الذي اؤتمن على بناء المجتمع المسلم من التبعية وتقليد اليهود في منهجه الفكري والسلوك، حتى في قول هؤلاء اليهود (راعنا) خطاباً للنبي ﷺ زاعمين أنهم يريدون بها راعنا سمعك، والواقع أنهم يستخدمونها مصطلحاً يريدون به الرعونة أو ما هو أشد منها سباً للنبي عليه الصلاة والسلام وإيذاءً للمسلمين. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ فكان هذا ضماناً وقائياً من التقليد وذوبان الفرد والجماعة في مصطلح أعداء الله والإنسان، وكان في الوقت نفسه وضعاً للمسلمين على المحجة: ذاتية وتميّزاً، الأمر الذي يضمن سلامة المنهج حتى تكون الكلمة التي يخاطبون بها رسول الله ﷺ والتي يريدون بها أن يُرعيَهم

سمعه ويعينهم أكثر وأكثر على وعي ما يقول: كلمة خالصة من الشوائب وهي كلمة (انظرنا) بدلاً من كلمة (راعنا) التي كان اليهود عليهم لعائن الله وغضبه يريدون بها المساءة والإيذاء. وهكذا جاء النهي عن قول راعنا، واتبع بالأمر بقول انظرنا وختمت الآية بتهديد الكفرة بما يستحقون من العذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

وأفصحت الآية التي تلتها ـ كما أسلفنا ـ عن أن الكفار سواء أكانوا أهل كتاب أو مشركين لا يريدون شيئاً من الخير للمسلمين، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وتنمية الشعور بهذه الحقيقة ضرورة لسلامة البناء عند الفرد والجماعة، لأن الواقع يدل على أن هذه الحقيقة قائمة ثابتة تتجاوز عصر النبوة الذي كان فيه سببُ النزول، ووعي الأمة لها: يعين في علاج جانب خطير من هذا الواقع الأليم في علاقتهم بأعداء الله وبخاصة اليهود. إذ إن القرآن نبَّه بما لا يدع زيادة لمستزيد على ما يجب التنبه إليه فيهم.

قادني إلى التذكير بهذا ما قصدت إليه من الإشارة إلى أن الآية السادسة والأربعين من سورة النساء والتي أستهل بها حديث اليوم، وهي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ الآية حملت فيما حملت من العطاء تفصيل ما أجملته الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة بشأن كلمة (راعنا) فكشفت عن عدد من المساوىء التي تنبىء عن منهج سوء متكامل عند اليهود في تفكيرهم وسلوكهم مع النبي ﷺ والمسلمين، ومنها سوء استخدامهم لكلمة (راعنا). إذ إنهم حتى في الكلمة يقولونها، ينأى بهم الانحراف عن أن تكون كلمة ذات مدلول طيب، فيتجاوزون ذلك إلى ما فيه سوء القصد وإرواء الغليل من الحقد الدفين والمكر السيء ولا يحيط المكر السيء إلا بأهله.

هذا شيء من الظاهر، وما يخفونه من الحقد الذي يعتلج في الصدور: أكبر وأشدَّ مرارة، وتبارك ربنا الذي يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون إذ يقول في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وإلى حلقة قادمة نتابع فيها تجلية هذه النقطة بالغة الأهمية!!.

obeikandl.com

obeikandl.com

الواقع والبناء.. وزيادة اليقين بأن القرآن من عند الله

وسورتا البقرة والنساء

« ١ »

مما يزيد يقين المؤمن بأن الكتاب العزيز كلام الله تبارك وتعالى: أنك حين تقرأ ما تقرأ من آيه: تُحِسُّ ارتباط المعنى ـ في كثير من الأحيان ـ بسبب النزول، وحين يمتد بصرك إلى الواقع الذي تعيشه أمتنا: تجد كأن تلكم الآيات الكريمات تتنزل اليوم على هذا الواقع، كيما تأخذ بيد المسلمين إلى ساحل النجاة والقدرة على تجاوز الصعاب وإنشاء واقع جديد يتواءم مع العقيدة التي يحملون، والرسالة الخاتمة التي بها يؤمنون. والآيات التي سعدنا بها فيما أسلفنا من قريب، وما قبله وهي الآيات الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة والآية السادسة والأربعون من سورة النساء والتي تتعلق بموقف أعداء الله ـ واليهود منهم بخاصة ـ من المسلمين: واحد من الأدلة الكثيرة المستفيضة على ما نقول.

وفي حديث موصول بما كنا بصدده في هذا الباب: أود أن أعود إلى الكشف عن أن الإجمال فيما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ قد جاء بيانه في سورة النساء؛ ذلكم قوله جلت حكمته في الآية السادسة والأربعين: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ وحين لا نتخلى عن النظرة إلى الواقع عند الكلام عن البناء وضرورة الإحسان فيه على جميع الأصعدة وفي كل الميادين، ضماناً

لسلامة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية وغيرها ووضع ذلك كله في خدمة البناء بعلم وموضوعية... حين لا نتخلى عن النظرة إلى الواقع على هذه الشاكلة، يكون من الضرورة بمكان تبيُّن مواقع الخُطا على هدي ما جاء به الكتاب العزيز وبيّنته السنة المطهرة، خصوصاً وأن العلم والعبرة بالواقع وحسن الإفادة منها، واستخلاص النتائج التي ترتبت على المقدمات: من المقاصد الكريمة لهذين المصدرين العظيمين الأساسيين في شرعة الإسلام وبناء الكيان الذاتي للأمة.

وعلى هدي هذه الحقيقة ننظر في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء لنرى أنها ـ كما أشرنا من قبل ـ بينت ما جاء في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة، ففي سورة البقرة نُهي المؤمنون عن قول (راعنا) وأُمروا أن يقولوا بدلاً عنها: (انظرنا) وأن يسمعوا سماع طاعة ووعي وتطبيق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾. وفي سورة النساء وصف اليهود بأنهم يأتون عدداً من القبائح منها قولهم لرسول الله ﷺ (راعنا) ليأ بألسنتهم وطعناً في الدين.

فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيؤولون كلام الله على غير تأويله ويفسرونه وفق ما تمليه أهواؤهم، وبدلاً من أن يسمعوا ويطيعوا فيقولوا: سمعنا وأطعنا: يسمعون ويعصون ويقولون: سمعنا وعصينا، ويسيئون إلى رسول الله أكثر وأكثر فيقولون ـ عليهم لعائن الله وغضبه ـ: اسمع غير مسمع أي اسمع لا سمعت، كما يقولون: (راعنا) ويريدون بها الرعونة أو ما هو أسوأ سباً للنبي عليه الصلاة والسلام.

وإلى أن نلتقي على متابعة ذلك أود أن ألفت النظر إلى أن الوقائع المتجددة ـ فيما نرى ونسمع كل يوم عما يصنعه اليهود وأعوانهم ـ: يفترض أن تشدَّ أهل الوعي والتأثير من أبناء هذه الأمة إلى أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن مسلّمات القرآن يجب أن تأخذ حجمها الطبيعي عند البناء الذي نريده قنطرة للواقع الأمثل الذي تكون فيه الأمة صاحبة الكلمة في تقرير المصير، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون.

سورتا البقرة والنساء.. ووقفات مع آيات

«٢»

سلامة البنية الثقافية عند المسلم وما يقتضيه التكامل في منهج التفكير، يوجبان أن تؤخذ القضية من مصادرها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، كما هي دون زيادة أو نقص، مع الانتفاع بمعرفة الواقع كما هو.

ولقد كان من عناية القرآن ببناء شخصية المسلم: أن عمل على تنمية شعوره بالحقيقة بعد وعيها كاملة في شأن علاقته باليهود وبغيرهم من أعداء الله والإنسان.

وعلى هذه الساحة كانت لنا من قريب وقفة عند واحدة من آي سورة النساء وهي الآية السادسة والأربعون المبدوءة بقوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ الآية والتي أشرنا إلى أن فيها بياناً لما أجمل في سورة البقرة في شأن كلمة (راعنا) من قوله تبارك وتعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

والواقع أن هداية الكتاب العزيز فيما يمتد من روائها على الإنسان أياً كان هذا الإنسان، فتدله على الطريق وتوضح له المعالم.. هذه الهداية أشارت في ختام الآية المشار إليها من سورة النساء إلى أن اليهود لو عدلوا عن الانحراف وسلكوا السبيل السوي فيما يقولون ويفعلون، لكان خيراً لهم ولكن حلَّت عليهم اللعنة بسبب عنادهم في الكفر، فلا يؤمنون إلا قليلاً. ولنعد إلى ذكر الآية الكريمة ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾.

هكذا يجيء الحديث عن كلمة «راعنا» التي نُهي المسلمون عن أن يقولوها، وأُمروا أن يقولوا بدلاً منها (انظرنا) لكيلا يقعوا في حمأة التقليد الأعمى ويذوب المجتمع في مصطلحات الآخرين وانعكاساتها الهدامة.. يجيء الحديث عنها في بيان تفصيلي يشعر أنهم كانوا يقولونها خطاباً للرسول ﷺ ليأ بألسنتهم وطعناً في الدين، فليعدل المسلمون عنها إلى غيرها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى دلت الآية ــ وهذا ما يجب أن تتفتح عليه الأعين عند البناء والإعداد ــ أن كلمة (راعنا) التي يقولونها ليأ بألسنتهم وطعناً في الدين: جاءت في سلك مجموعة من القباحات هي تحريف اليهود كلام الله عن موضعه، وقولهم: سمعنا وعصينا، وإساءتهم لرسول الله بقولهم. (اسمع غير مسمع) ومقصودهم الدعاء عليه إذ المراد: اسمع لا سمعت..

وإذن: فالقضية قضية منهج متكامل يتسم بهذه القباحة ــ والعياذ بالله ــ والتناسب واضح بين كل فقرة وأخرى من فقراته. ويحين التنبيه بعد ذلك على أن هؤلاء اليهود لو عدلوا عن هذا المنهج لكان خيراً لهم وأقوم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ولكنه الطرد من رحمة الله، حلّ عليهم بإصرارهم على الجنوح عن الصراط المستقيم واستجابتهم للحقد يغلي في صدورهم.

فهل نكون على ذكر من ذلك ونحن نتطلع إلى مستقبل أفضل ونحاول لمّ الشعث ونبذ التخلف كيما نكون أقدر على إعادة الأمور إلى نصابها؟ نسأل الله العون.